الحرية والإسلام

حسن حنفى
القاهرة

قامت الثورات العربية فى تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا. ولم يعد أحد يشك فى امكانيات الشعب العربى على الثورة بعد استكانة طويلة منذ الخمسينيات والستينيات باستثناء بعض الانتفاضات الشعبية هنا وهناك وعلى فترات متقاربة مثل الانتفاضة الشعبية فى يناير 1977 والأمن المركزى 1986 والانتفاضة العمالية فى السادس من أبريل 2010 ومثلها فى تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والبحرين والكويت. ولم يعد أحد يشك فى أن الوطن العربى يشاهد ثورة ثانية بعد الثورة الأولى فى الخمسينيات والستينيات بقيادة الضباط الأحرار وهى الآن بعد العقد الأول من القرن الواحد والعشرين اي بعد حوالى أكثر من نصف قرن بقيادة الشعوب الحرة.

ومن يدرى متى تكون الثورة الثالثة بعد أن تتعثر الثورة الثانية بسبب نسيان الوحدة الوطنية من أجل الصراع على السلطة لصالح الفرقة الناجية، كما تعثرت الثورة الأولى وتحولت الدولة الوطنية التى سقط من أجلها ملايين الشهداء الى دولة مستبدة. وتقوم الثورة الثالثة هذه المرة بقيادة المفكرين الأحرار بعد تثوير الثقافة والبداية من البداية كما حدث فى الثورة الفرنسية.

وبعد انتصار الثورات العربية، والبقية فى الطريق، بدأت التحديات، ما العمل؟ ونظرا لأن الحرية والديمقراطية كانتا المطلب الأساسى لها قبل العدالة الاجتماعية. فالقهر يأتى قبل الفقر، "وتجوع الحرة ولا تأكل من ثدييها" و"لاقينى ولا تغدينى". كانت الحرية هى المطلب الأول بإسقاط الاستبداد "الشعب يريد اسقاط النظام". والاستبداد فى غياب الرقابة يؤدى الى الفساد. واذا كانت الثورة المصرية والثورة التونسية فى مرحلة التحول الديمقراطى بعد انتصار الثورة قد أدت الى حصول الاسلاميين على الأغلبية بعدهم يأتى العلمانيون أو اليسار من ديموقراطيين وليبراليين وناصريين وماركسيين ووطنيين. وربما تكون نفس النتيجة اذا ما تمت انتخابات حرة فى البحرين والكويت وسوريا والعراق والجزائر والمغرب وموريتانيا. الا أن التجربة الليبية قد بينت حصول الأحرار الوطنيين على الأغلبية قبل الاسلاميين ولو بفارق ضئيل فى المجلس الوطنى. مما يدل على أن هناك مطلبين رئيسيين للثورة: الحرية كهدف والاسلام كوسيلة. وهما رئتان لا يستطيع الوطن أن يتنفس بدونهما. الاسلام بمفرده قد يقع فى الصورية والشكلية والشعائرية والمظهرية مما قد يؤدى الى الازدواجية والنفاق والادعاء والتكسب بالدين فى البرامج الاعلامية والسعى وراء المناصب مادامت اللحية والعمة والجبة والسبحة قد توافرت. والحرية دون الاسلام قد تتهم بالعلمانية فى أحسن الأحوال، والكفر والالحاد فى أسوأ الأحوال. وينقلب الصراع بدلا من التخلى عن الفلول واعادة بناء جهاز الدولة ومؤسساتها الى صراع بين المدنى والدينى، بين الدولة الدينية والدولة المدنية، بين الاسلام والعلمانية فى ثنائيات مزيفة وقعنا فيها منذ فجر النهضة العربية الحديثة خاصة منذ الحوار بين محمد عبده وفرح أنطون حول الموضوع على صفحات جريدة "الجامعة" لفرح أنطون والذى نشره محمد عبده بعد ذلك فى "الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية".

وقد كانت الثورة الليبية تجربة فريدة. اذ أنها تمت بالسلاح. وأخذت مدة طويلة ما يقرب من العام. وكان التدخل الخارجى لقوات الناتو أحد العوامل المساعدة فى نجاحها. كانت ثورة غير متوقعة الا أن حصارها بين تونس غربا ومصر شرقا جعلها بين شقى الرحى. وبدأت من بنى غازى حيث يمتد أثر مصر على الشرق. فلا فرق بين بنى غازى والاسكندرية. ومصر هى المتنفس الطبيعى لليبيا فى الغذاء والصحة والتعليم والتحديث. وقد يكون طموح الليبى هو الاتجاه شرقا والزواج من مصرية كما أن طموح المصرى هو الاتجاه شمالا والزواج من أوربية. والتحدى الآن ليس الصراع بين الاسلاميين والعلمانيين كما يحدث فى مصر وتونس، سعيا وراء السلطة بالمعنى القديم وكأن الثورة لم تتجاوزها الى سلطة الشعب وسلطة الهدف. التحدي أمام الاسلاميين هو تحويل الاصلاح الى ثورة، ومحمد عبده الى الأفغانى، والسنوسى الى عمر المختار. التحدي هو ايجاد طرف ثالث بين الاسلام والحرية هو الوطن والمواطنة. فالمواطن هو الذى يتنفس بالرئتين. والرئتان لا يتنفسان خارج جسد الوطن. ففى الوطن يلتقى الاسلام والحرية. وفى المواطن تجد الحرية حاضرها. كما يجد الاسلام تاريخه. التحدي هو التحول من الثورة الى الدولة بعد أن كان الفرد هو الدولة والثورة فى آن واحد. التحدي هو كيفية التحول من الولاء للقبيلة الى الولاء للدولة، ومن السيطرة المسلحة على الشارع والحى من المقاتلين زهوا بالثورة الى السيطرة القانونية من الشرطة والأمن. فالقانون واحد يسرى على الجميع، وليس السلاح الذى به يفرض حامله ما يشاء. يمكن الاحتجاج على الولايات المتحدة الأمريكية بشتى الوسائل السلمية لا بقتل سفرائها وقناصلها ودبلوماسييها وحرق سفاراتها. فمن واجبات الدولة حمايتها ضد مواطنيها. كيف تتحول الثقافة الديمقراطية التى يتمثلها السياسيون وأقاموا على أساسها الانتخابات، المجلس الوطنى ورئيس الحكومة، من النخبة الى الجماهير، ومن القاعات المغلقة الى الشوارع المفتوحة والفضاء العريض؟ كيف تتحول ثقافة الاستبداد الفردى الى ثقافة الاستبداد القبلى. لقد ظل الشعب يرسخ أربعين عاما تحت الاستبداد حتى أصبح الخوف جزءا من تكوينه وما يصاحبه من ازدواجية الخطاب والسلوك، واحد مع الحاكم، والثانى مع المحكوم. وقد أصبح الآن حرا ذا خطاب وسلوك واحد هو خطاب وسلوك الحاكم اقتداء به كى يتمتع بما استبعد منه، وسلب عنه. لقد استمع كثيرا الى أن الحاكم السابق هو الدولة فلماذا لا يتمتع هو بذلك كى يعرف ماذا يعنى أنه هو المحكوم الذى أصبح حاكما أنه أيضا هو الدولة؟ كان ضحية الخطاب السياسى على مدى أربعة عقود فلماذا لا يصبح هو صاحب الفعل السياسى فى العقود القادمة بعد أن وُصف بأنه من الجرذان وأنه سيُطارَد من زنقة الى زنقة، ومن دار الى دار. لقد كان الزعيم واحدا فلماذا لا يكون زعيما؟ لقد كانت ألقابه تفوق القدرة على حفظها، وآخرها ملك ملوك أفريقيا وهو ليس أفريقيا أسود. ويريد المواطن أن يعيش بالتجربة ماذا يعني ذلك ان أخذ هو هذه الألقاب؟ لقد صاغ أيديولوجيات مثل "الكتاب الأخضر" الذى لا يتعدى بعض الخطابة السياسية مضروبة فى اثنين من أيديولوجيات العالم الثالث عن الاشتراكية والديمقراطية والحرية. كما صاغ عدة مفاهيم أخرى مثل دول الساحل والصحراء حتى لا يقع فى مفاهيم الاستعمار الغربى، دول شمال الصحراء ويعنى بها الدول العربية، ودول جنوب الصحراء ويعنى بها الدول الأفريقية كى يضع شقاقا بين شمال الصحراء وجنوبها، وصراعا بين العرب والأفارقة. من تحديات الربيع العربى وحدة الوطن فى الداخل واستقلاله فى الخارج. وتتم وحدة الوطن فى الداخل بالحوار الوطنى بين كافة القوى السياسية التى ساهمت فى انجاح الثورة. واستقلال الوطن فى الخارج يأتى بالتمسك بمسئولياته والتزاماته الدولية. فالاعجاب بالربيع العربى لا يمنع من ترشيد مساره واستنفاذ طاقاته فيما يفيد. فاذا كانت الحرية فى رئة تحفظ الجسد ضد الاستبداد فان الاسلام فى الرئة الأخرى تحمي الجسد من الوقوع فى الاغتراب. صحيح أن لكل ثقافة مقدساتها، ولكن فرق بين مقدس ومقدس. فالكعبة مقدسة والمسجد الأقصى مقدس، والحجر الأسود مقدس، وقبة الصخرة مقدسة. والرسول مقدس والاساءة اليه تثير المسلمين فى كل مكان مثل الاساءة الى المصحف. ودم الفلسطينى والسورى أيضا مقدس وحياته مقدسة وهو يُقذف بالطائرات ويستشهد، وحريته مقدسة وهو قابع وراء القضبان عقودا من الزمان. دخل السجن صبيا وأصبح فيه شيخا، ومحكوم عليه بمئات السنين فى الحياة وبعد الممات. يا ليت المسلمين يثورون من أجل جميع المقدسات المباشرة منها والرمزية حتى تتحرر فلسطين، ويسترد الفلسطينيون أرضهم من الاحتلال الصهيونى والاستيطان، ويسترد الشعب السوري حريته. ليت الثورة ضد الولايات المتحدة ليست فقط للسماح بفيلم مسيئ للرسول ولكن أيضا لتأييدها الاحتلال الصهيونى لأراضى المسلمين، وتأييده بالسلاح والمال، ومنع ادانته فى المنظمات الدولية. ليت المظاهرات المعادية لأمريكا من أجل تحرير أراضى العرب من القواعد العسكرية الأمريكية ومن قتل العرب والمسلمين فى اليمن وأفغانستان من الطائرات بدون طيار ومن اغتيال الأبرياء. فالعالم كله مقدس بفعل الخلق وليس فقط الرسول. هنا تأخذ المظاهرات المعادية للولايات المتحدة الأمريكية دلالة جديدة ومضمونا جديدا يشارك فيها جميع العرب والمسلمين.

مفكر مصري

> كانت الثورة الليبية تجربة فريدة. اذ أنها تمت بالسلاح. وأخذت مدة طويلة ما يقرب من العام. وكان التدخل الخارجى لقوات الناتو أحد العوامل المساعدة فى نجاحها. كانت ثورة غير متوقعة الا أن حصارها بين تونس غربا ومصر شرقا جعلها بين شقى الرحى. وبدأت من بنى غازى حيث يمتد أثر مصر على الشرق. فلا فرق بين بنى غازى والاسكندرية

الوجه الآخر لإلغاء البطاقة التموينية

عبدالستار رمضان
أربيل

ردود الفعل الكبيرة والمباشرة من قبل المواطنين والحركات السياسية والدينية والتي هددت بالخروج في تظاهرات شهدتها فعلا بعض المدن العراقية الى جانب رفض مجالس محافظات بعض المدن تنفيذ قرار الحكومة العراقية وتعهد البعض منها بالاستمرار في توزيع مفردات البطاقة التموينية على مواطنيها وعدم تنفيذ قرار الحكومة الذي صدر الاسبوع الماضي بإلغاء البطاقة التموينية ابتداءً من شهر آذار القادم.

هذه الردود اجبرت الحكومة على التراجع عن قرارها حيث افادت الانباء الواردة يوم 11 تشرين الثاني عن قرار مجلس الوزراء العراقي في جلسة طارئة عقدها التراجع عن قرار الغاء البطاقة التموينية، وان قرار الغاء البطاقة التموينية تم التراجع عنه وقرر المجتمعون العودة بنظام البطاقة الى ما كان عليه مسبقا أي قبيل صدور القرار الاخير الذي صدر يوم الثلاثاء الماضي والذي قرر الغاء نظام البطاقة التموينية والاستعاضة عنها بمبلغ 15 ألف دينار لكل فرد والذي واجه رفضا شعبيا دفعت رئيس الحكومة نوري المالكي الى محاولة امتصاص حالة الغضب والرفض الشعبي وتأكيده أن مبلغ التعويض البالغ 15 الف دينار قد يزداد الى 25 الف دينار.

ولسنا بصدد تقييم نظام البطاقة التموينية او بيان فوائدها او مميزاتها او عيوبها التي يعرفها العراقيون جيداً ولكن ردود الافعال والتي وصلت الى حد وصف بعض العراقيين على شاشات التلفزيون بأن قرار الغاء البطاقة التموينية يمثل اعداما للفقراء والمحتاجين، وهو ما يدعو الى التساؤل: هل كانت الحكومة مدركة لنتائج القرار الذي لم يستطع الصمود اكثر من اربعة ايام؟ والذي لم يشهد العراق توافقا او تطابقا في موقف كما اجتمعت عليه آراء ومواقف المواطنين مع السياسيين ضد قرار الالغاء.

ولكن من الانصاف ايضاً القول ان قرار الغاء البطاقة التموينية اذا لم يكن له اي فائدة او جدوى فانه ابرز واوضح قوة الفقراء والارادة الشعبية التي يمكنها فعل الكثير اذا ما تم المساس بالأساسيات والهموم المشتركة لاغلب المواطنين، كما اظهر الموقف الضعيف والمهلهل للحكومة العراقية التي بدا انها تعيش في واد ويعيش الشعب في واد آخر، كما اظهر احراجا للحركات والاحزاب السياسية التي ولدت وجاءت منها الحكومة ، حيث سارعت الى التبرؤ من قرار الحكومة بل ودعتها الى التراجع عن قرارها وهو ما ظهر واضحا بجلاء في بيانات حزب الدعوة والقائمة العراقية ونواب التحالف الكردستاني واعتذار السيد مقتدى الصدر بسبب تصويت وزراء كتلته على القرار، رغم كل ما قيل من ان قرار الغاء البطاقة التموينية قد صدر باجماع السادة الوزراء الذين يبد انهم يعيشون في عالم آخر غير العراق، كما يبدو انه لا توجد اي علاقات او اتصالات بين الوزراء واعضاء مجلس النواب من اعضاء كتلهم واحزابهم التي اوصلتهم الى كرسي الوزارة.

كما اننا لا نعرف كيف تم التصويت على مثل هذا القرار وبعد اكثر من سنة ونصف من الدراسات واللجان المالية والاقتصادية التي قدمت تقاريرها الى مجلس الوزراء والذي يعمل من دون نظام داخلي او طريقة صراحة او ضمنا القاء المسؤولية على عاتق وزير التجارة (الكردي) الذي كاد ان يتحول الى كبش فداء للبطاقة العزيزة!.

الوجه الآخر للبطاقة التموينية اثبت انها وثيقة عزيزة ومهمة يصر الكثيرون على التعلق بها رغم انهم يشكون من فساد موادها وقلة كمياتها وتذبذب اوقات تسلمها، لكنها تبقى رغم كل الكلام الذي يقال في نقدها وبيان مساوئها انها افضل الحلول الموجودة للعوائل الفقيرة والتي تشكل الحلقات الاضعف والافقر في المجتمع العراقي الذي اصابه الكثير من الامراض والعلل النفسية والاجتماعية من جراء سنوات الحروب والصراعات والحصار والتغيير (الاحتلال) الذي لم يأت الا بالقليل من الخير للفقراء.

واظهرت قنوات التلفزيون التي سألت العديد من المواطنين من مختلف المدن والمهن والمستويات الاقتصادية عن رايهم وموقفهم من قرار الغاء حيث اكد معظمهم ان البطاقة بكل مساوئها تمثل افضل واحسن الموجود امام حالة الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يعصف بحياة العراقيين والذين تعتمد غالبيتهم على البطاقة التموينية في حياتهم اليومية منذ بدء العقوبات الدولية على العراق في العام 1991والتي كانت مفرداتها تشمل الرزوالطحين والزيت النباتي والسكروالشاي ومسحوق الغسيل والصابون والحليب المجفف (للكباروالصغار)، والبقوليات كالعدس والفاصوليا والحمص، والتي اختزلت في السنوات الاخيرة الى الرز والزيت والسكر والطحين حاليا.

اخيراً لا بد من القول ان العراق يمر بمرحلة حرجة ودقيقة وظروف صعبة وازمات متعددة ومستمرة، وليس من الحكمة زج الناس وخصوصا الطبقات الفقيرة والحلقات الاضعف في المجتمع العراقي في ازمة جديدة وجدية تمس قوت يومه وعياله بعدما تعود واستقرت احوال الكثيرين على التموين والعيش من خلال سلة البطاقة التموينية التي تمثل حلقة ودائرة تجمع افراد الاسرة الواحدة، وهي بالتاكيد افضل واحسن من البدل النقدي الذي سيثير مشاكل جديدة وعديدة بين من يتسلم هذا البدل، ومدى تقبل باقي افراد العائلة لهذا الامر، وكيفية التصرف والشراء والتبضع؟ وامكانيات الاستغلال وجشع التجار الذين ربما سيكونون المستفيد الاول والاخير من هذا القرار.

ان المطلوب اليوم من الحكومة العراقية والكتل والأحزاب السياسية ومراكز وقوى التأثير في العراق ان تستفيد من درس البطاقة التموينية وتعلم ان لصبر الشعب حدود ولابد ان تكون بمستوى وعي وهموم قواعدها الشعبية التي باتت تقف على الضد والنقيض من كل ما تقرره الحكومة حتى لوكان الامر فيه خير وصلاح، وهو ما يتطلب من الجميع خطوات فعلية وحقيقية تتمثل في:

1ـ محاربة الفساد الذي لايقل خطره عن خطر الارهاب وتشريع قانون مكافحة الفساد كما هو الحال في قانون مكافحة الارهاب، وتشريع عقوبات شديدة ومصادرة اموال المداني وتنفيذ العقوبات بصورة علنية ونشر الاحكام من اجل فضح الفاسدين.

2ـ تدخل الدولة في المفاصل الرئيسية والاساسية في الاقتصاد فالتجار قد جاوزوا كل الحدود، ويحتاج العراق في هذه المرحلة الى الاقتصاد الموجه والمسيطر من قبل الدولة في السلع والغذاء والدواء والوقود والحاجيات الاساسية.

3ـ اجراء التعداد العام للسكان وتدقيق البطاقة التموينية التي يشوبها الفساد الكثير، وتشريع عقوبات رادعة للمزورين والمتلاعبين بالوثائق الرسمية وعدم شمولهم باي قرار عفو وبما يعيد للقانون سيادته واحترامه من الجميع.

نائب المدعي العام ـ اقليم كردستان العراق

بناء المجتمعات الحديثة

حسن الأكحل
الرباط

لا يمكن لأي أحد أن يتجاهل الدور الأساسي الذي يلعبه الفعل الثقافي في تشكيل آليات التواصل والاندماج بين الأفراد والجماعات وكل جزئيات انتاج القيم والأنساق الفكرية.

فمنطق التحليل البسيط لحركية الفعل الثقافي من زواياه المتعددة مجاليا وكرونولوجيا يعطي الانطباع بأن البناء الاقتصادي ونظم الحكم والعلاقات التجارية ونظام التعليم والفلاحة والعمران وحدة متكاملة يؤطرها فضاء فكري وسياج سوسيولوجي يتفاعل أفقيا وعموديا مع مختلف التحولات التي يفرضها الفعل الثقافي، فالثقافة بكل مكوناتها وأبعادها الدلالية وحمولاتها المفاهيمية هي تعبير مركب يمزج كل التعابير المجتمعية ضمن سياق تاريخي يدمج كل التفاصيل من معتقدات وعادات وتقاليد و لغة تواصل وأشكال تنظيم العلاقات الاجتماعية ومختلف الوسائط في فضاء يتداخل فيه المكون الثقافي ويصبح كقاعدة أساسية في فهم العلاقات بين الفرد والجماعة وأفاق تحولها ضمن واقع تتجسد فيه كل المفاهيم والرموز كلبنة أساسية لبداية تشكل المجتمع.

وانطلاقا مما سبق فالتحليل البنيوي للبناء المجتمعي هو آلية ميكانيكية تجعل الانسان كائنا بشريا واجتماعيا محور كل تحول نوعي على كافة المستويات (المعاش ـ العمران ـ التجارة ـ الفلاحة ـ الصناعة)، و يؤطره منظوم فكري محكوم بخلفية ثقافية تذوب فيها كل الارهاصات وأنماط التدبير والتعبير والتواصل وكل ما يجعل الانسان مصدرا لانتاج القيم، فالمجموعات البشرية من خلال القراءات السوسيولوجية والتاريخية سواء كانت شرقية أوغربية راهنت في تحولها وتطورها على قدرة فهم علاقتها بالآخر وادراك قدرته على التحول من مجتمع يصنع الفعل الثقافي ويؤثر في منظومة القيم ويدفع بها نحو التفاعل الايجابي في تجاوز معيقات الانتقال التاريخي والمجالي، ولقد شكل بروز المدارس التاريخية الحديثة كمدرسة الحوليات وتطور البحث السوسيولوجي بمختلف تفرعاته وعلم اللسانيات، على التأكيد بأن الفعل الثقافي آلية مدققة ومضبوطة تتحكم جغرافيا وزمنيا في بناء وتحديث المجتمعات البشرية، ومن هنا لم تشكل المنعطفات الهامة التي عاشتها أوربا في نقل المجتمع من مرحلة الى أخرى بالرغم من الرجات والمنعطفات التاريخية الهامة بقدر ما كان الفعل الثقافي صمام أمان و حاضرا بقوة وساهم بشكل سلس و في سياق تفاعلي في استشراف المستقبل.

فالعصر الفيودالي وعصر النهضة والأنوار ما هو الا امتداد عملي لكيفية بلورة علاقة الانسان بمحيطه بشكل ايجابي دون أن يؤثر عليه ثقل الزمن التاريخي بمحطاته الحساسة ومنعرجاته الخطيرة لأن نواته الصلبة كان يؤطرها الفعل الثقافي وتفرعاته المتعددة.

لقد ترسخت لدى أغلب الدارسين والباحثين في حركية الفعل الثقافي أن المجموعات البشرية عبر مسارها التاريخي كانت تواقة للاستقرار لبواعث نفسية وسيكولوجية وهذا ما أجبرها بالرغم من الصدام والصراع داخل محيطها الضيق الى ايجاد صيغ للتعايش والاتفاق وكانت وفرة الماء والغداء خطوة أولى في بداية التأقلم مع المجال ثم جاءت الرغبة في العمران (المغارة ـ الكوخ من أوراق الأشجار ثم في مرحلة ثانية من الطين) ثم تأتي مرحلة الزراعة ثم ادخار المنتوج ثم بداية مرحلة المقايضة ثم التجارة ثم بداية الصناعة اليدوية للأدوات الفلاحية وغيرها من الوسائل التي تسهم في تيسير الحياة، وكان اللباس والطبخ والتعليم وأشكال المعمار وتنظيم المهن والحرف أهم الجزئيات المفصلية في تطور وعي الانسان بمحيطه دون أن نتجاهل عملية التأثير والتفاعل مع طبيعة المجال. في خضم هذه التحولات الكونية التي عاشتها التجمعات البشرية بدأت تظهر بعض الارهاصات والمضامين الفكرية من أجل مواكبة هذا التطور بغية ايجاد ما يمكن أن يساهم في تحسين شروط وظروف العيش ولم تكن قضايا البناء المجتمعي في شقه العمراني والمعاشي بعيدة كل البعد عن حركية الفعل الثقافي الحاضن لمختلف هذه التموجات والتفاعلات على مستوى انتاج القيم وتكريس منطق الذات والحفاظ على الهوية وهذا ما أفرز مجموعة من النقاشات داخل هذه التجمعات في شتى المجالات العقائدية والفلسفية وأفرزت مدارس متعددة في ترتيب حاجيات المجتمع في مجالات الابداع والحرية والاقتصاد والتواصل والعمران وتنظيم العلاقات ما بين الأفراد والجماعات، وقد كان لجمهور الفلاسفة والاصلاحيين قصب السبق في تكريس هذه الاختيارات والتعبير عنها (قيم الجمال، الحقيقة، الحرية، الابداع، السعادة، العقل) غير أن ذلك لم يمنع من كون هذا النقاش عرف في بعض محطاته صدمات قوية وعنيفة أثرت وبشكل كبير على التحول المجتمعي في بعض الأحيان وقد أحدث عصر الأنوار والثورتين الفرنسية والصناعية رجة قوية في بداية تشكل ما أصبح يعرف بالمجتمع المدني الذي ساهم وبشكل فعال في التحول بالرغم من الضغط الذي خلقه التحالف المصلحي والمنفعي ما بين الكنيسة والنبلاء لفرملة أي تحرر فكري واقتصادي غير أن لفيف مثقفي الأنوار والاصلاحيين الدينيين خاصة في ألمانيا وبداية بروز تيار فكري واقتصادي جديد سيعجل بظهور ما سيسمى لاحقا بالمجتمع المدني والذي سيقود مستقبلا التحول داخل أوربا انطلاقا من جدلية الفعل الثقافي التي تربط ما بين الجزء كقاعدة صلبة في التحليل البنيوي (الممارسات ـ السلوك ـ العادات ـ التقاليد ـ تنظيم المجال) وقضايا المجتمع في شموليتها كاطار فكري وأخلاقي (النظم الاقتصادية ـ مناهج الحكم ـ النسق التعليمي) والذي سيعزز آليات الفصل على مستوى المقاربة السياسية والاقتصادية والفلسفية والمجتمعية مع بداية الثورة الصناعية في انجلترا، ويتجسد فعليا بتقسيم اجتماعي مؤطر بخلفية اقتصادية ومضامين فكرية وهذا ما سيحدد من الناحية الفعلية ببروز تيارات ايديولوجية ستكون الوعاء الحاضن لهذا التقسيم المجتمعي الجديد أو ما سيعرف لاحقا بالصراع الطبقي في تمظهراته المتعددة بين نموذجين من التحليل أملتهما التوجهات الاقتصادية والصراع على فائض القيمة والانتاج وبين توجه يدافع عن انسية المجتمع واحترام كرامة البشر وكان لهذا الصراع الفكري والايديولوجي تأثير على الطبقات الاجتماعية التي ستخلق آليات مضادة محكومة بخلفية ثقافية واطار فكري سيتبلور عمليا بأدبيات الفكر الاشتراكي مقابل رأي يدافع عن حرية المبادرة وحق التملك لكل وسائل الانتاج دون أن نتجاهل في تقييمنا أن حركية الفعل الثقافي وطنت هذا الصراع ضمن سياق معقد سيدفع المجتمع الأوروبي الى تعزيز وتحصين الحماية الذاتية والوقاية الفكرية لكل أنساقه المجتمعية والتي ستتعزز بفعل الحروب الطاحنة التي شهدتها أوروبا مما أدى الى ظهور نخب فكرية توطد دعائم هذا التقسيم المجتمعي الجديد (العمال ـ الفلاحون ـ المثقفون ـ النبلاء ـ البورجوازيون) وتقوي آليات الصراع الذي قد يأخذ طابع الضغط والاكراه والتفاوض وهذا ما سهل على المجتمعات الأوروبية الانتقال من الصراع الدموي في حل قضاياها الى ايجاد وسائط وبدائل قادرة على أن تيسر البناء المجتمعي في مرونة واضحة وآليات مضبوطة تنتقل بشكل تسلسلي ضمن سياق تاريخي ومجالي أعاد بناء هذه المجتمعات وفق منظومة محكمة دون أن نتجاهل ما وفرته النهضة الأوربية من امكانيات هائلة وأثار نفسية في اعادة بناء هوية هذه المجتمعات وفق مشروعية مبنية على التراكم الحضاري (المدنية) والقوة العسكرية وهذا ما سيؤدي في بداية القرن 19 الى ما يعرف بالامبريالية أو حركة التوسع الاستعماري التي جاءت ضمن سياق البحث عن الوفرة والثروة والرخاء والتوسع نحو عوالم أخرى تحت غطاء نشر المدنية والحضارة الجديدة حيث سينقل النقاش من محيطه الضيق الى فضاء أرحب من خلال الاحتكاك بتجمعات بشرية أخرى لها خصوصياتها الفكرية وهويتها الثقافية. واذا انتقلنا الى الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، حيث يمتد عالمنا العربي بشرقه وغربه، فالبنية الاجتماعية السائدة في هذه الرقعة الجغرافية هي القبيلة ومجتمع المدينة ، وحسب الأونتروبولوجيين والسوسيولوجيين فالقبيلة هي بنية انقسامية مطبوعة بالانغلاق والانفتاح والانكماش ويغلب عليها عدم الاستقرار لأسباب موضوعية وأخرى ذاتية، فالطبيعة الجغرافية من هضاب وسهول وصحاري وجبال ومناخية من جفاف ورطوبة ومياه، وهذا ما فرض على القبيلة كمكون أساسي وثابت في أي تحول مجتمعي التنقل والترحال بحثا عن المراعي أو هروبا من الفتن والصراعات الداخلية وبالتالي فإن هذا النمط من العيش ساهم عمليا في استحالة تحول هذه البنية الى قوة ضغط أو عامل تأثير على المجالات المحيطة بها، باستثناء امتدادها الطبيعي داخل البادية، ومن هنا تأتي شروط التأثير والتحول من وسائط أخرى كالزوايا والنقباء والأنساب الشريفة والفقهاء والذين يمتلكون المشروعية الروحية التي تخول لهم سلطا أخلاقية وقيما رمزية تجعلهم يتوسطون في النزاعات حول المراعي والمياه والصلح بين أفراد القبيلة أو القبائل الأخرى، أما الوسائط الأخرى فهم الأعيان (وفرة الانتاج ـ الأراضي) والقياد والشيوخ الذين يمثلون السلطة المركزية، وتعتبر المواسم الدينية والأسواق الأسبوعية هي المتنفس الطبيعي للقبيلة وللبادية على العموم، أما المدينة فهي عبارة عن بنية اجتماعية مغلقة، ترتب فيها العلاقات بشكل دائري، حيث الحرفيون والصناع و التجار والنساخون والعدول، ثم بيوتات العلماء ـ النقباء ـ الشرفاء ـ الفقهاء ـ الطلبة ـ الأعيان ـ أهل الحل والعقد ـ الوافدون من الأندلس والشرق العربي بالنسبة لمجتمعات الغرب الاسلامي، كما أنها تعتبر نقطة استقطاب للقوافل التجارية والأسواق الأسبوعية، هذا التكامل على مستوى الأدوار الاقتصادية والاجتماعية أهلها من تطوير وظائفها وتجديد قدراتها وفق أنساقها الثقافية وتركيبتها الاجتماعية (اللباس ـ الطبخ ـ العادات ـ الأعراس ـ المعمار) على التحول الذي يظل محدودا بفعل عوارض مجالية وتاريخية كالجفاف والأوبئة والأمراض الفتاكة أو الفتن والنزاعات الداخلية وهذا ما أثر على تطور البنيتين (القبيلة و المدينة) وحتما على كل منهما التململ والتغير بشكل معزول معتمدتين على مضامينهما الفكرية والثقافية، كما أن الوسائط المادية وغير المادية أسهمتا بشكل كبير في توجيه مساريهما والتحكم في بنيتيهما وفق معطيات الجغرافية والتاريخ. ان القراءة الموضوعية والتي تفسر الاصطدام الذي حدث في القرن 19 ومطلع القرن 20 مابين الادارة الاستعمارية بكل مكوناتها (البعثات التبشيرية ـ الرحلات العلمية ـ القوة العسكرية) والبنيات القائمة داخل بلدان الجنوب (الدول المستعمرة) أفرزا نوعا من النقاش والجدل سرعان ما تطور الى مواجهات عنيفة تكشف استحالة التعايش بين نمطين من التأويل كلاهما له مرجعيته ومضامينه الفكرية وحركيته الثقافية المبنية على الهوية والرصيد الحضاري وهذا ما عجل في نهاية الاستعمار.

كاتب مغربي